وادى حلفـــا

بقلم عبد الرحمن فهمى

لبـانسيه فى الآداب

وادى حلفا عاصمة احدى مديريات السودان الشمالى ، وهى مديرية حلفا ، وهو ميناء نيلى تسير السفن البخارية الصغيرة بينه وبين الشلال تنقل المسافرين والبريد من مصر الى السودان ومنه اليها ، ويشعر الزائر المصرى للسودان عند ما تطأ قدمه ارض حلفا كأنه فى احدى مستعمرات التاج البريطانى ، ولا عجب فمنذ جلاء الجيش المصرى عام ١٩٢٤ تعمل السياسة البريطانية على أن تجعل من السودان منطقة انجليزية بحتة . وقد تلاشت المصرية أو كادت تتلاشى بعد أن كانت ظاهرة قوية فيه .

ووادى حلفا له مكانة خاصة لأنه كما قلت ميناء نيلى كبير ومركز للتجارة لا بأس به ، وهو فوق ذلك مدخل جمركى يفتش المسافرون وأمتعتهم فيـــه حتى لا تهرب بضائع معينة من السودان الى مصر . ثم هو الحد الذى يشعر عنده المصرى بشعور مؤلم هو شعور الفصل اللاطبيعى بين القطرين التوأمين .

وينقسم هذا البلد قسمين رئيسيين أحدهما « حلفا توفيق » نسبة الى مسجد كبير شيده الخديوى توفيق فى ميدان فسيح يتوسطه . والثانى « حلفا عسكر » نسبة الى معسكر الجيش المصرى الذى كان يعسكر فيه حتى سنة ١٩٢٤ .

وحلفا توفيق هو روح البلد ، ففيه الميناء المشغول بالحركة الدائمة ، ولا سيما عند وصول البريد اليه من الشلال وعند قيامه منه اليه ويحصل ذلك أربع مرات فى كل أسبوع ، وفيه محطة السكة الحديدية ومكتب البريد والبرق وبناء المديرية والمستشفى ودار الشرطة والمحكمة ومكتب الجمرك والرى المصرى ، وفيه المحال التجارية والمقاهى والفندق وتوكيل لبعض الشركات كشركة كوك وسنجر .

والدور فيه ذوات طابق واحد وفناءات فسيحة الا بعض الدور القلائل ذات الطابقين على ضفة النيل يؤجرها ملاكها الوطنيون الى بعض الموظفين المصريين والسوريين . .

وحلفا عسكر ، قسم صاخب بالنهار فى ناحية من نواحيه حيث توجد (الورشة) ففيه تسمع صوت المطرقة وآلات التصليح والنجارة والحدادة وغيرها . أما منذ الأصيل فهو هادىء ، وهو بخلاف القسم الأول ملآن بالدور الفخمة ، وأفخم هذه الدور هى التى يسكنها البريطانيون ، فهى مزدانة بالشجر والزهر والثمر ، تطل نوافذها على النيل ، ومنها تستطيع أن تمتع الطرف بمياهه الجارية كأنها السلسبيل ، وبالشجيرات على ضفتيه نضراء وقد تجمعت فى مكان وتفرقت فى آخر ، فكأنها الزبرجد مسكوبا ، وكأنك تستمد الحياة من منبع الحياة .

ويتوسط القسمين متنزه جميل فرشت أرضه بالبرسيم المورق قامت عليه الشجيرات النضراء المختلفة كأنها الحراس الا أنها تغفل دائما عن المنجل يحصده غالبا . وزين بالزهور المختلفة الألوان والأنواع تحملها جذور وسيقان ، ويدار الحاكى فيه مرة فى مساء كل جمعة . راجل (الراديو) حل محله اليوم

ويؤلف البريطانيون فيه كتلة متحدة غير مختلطة بغيرها من الأجناس الأخرى ، اللهم إلا الاختلاط الذى يوجبه العمل ، وهو مخالطة الرؤساء لمرؤوسيهم ، يلحون بالطلب فيلبى ، ويعطون الاشارة فتنفذ ، ويلقون الأمر فيطاع . أما فى أوقات فراغهم فهم يريضون أجسادهم بركوب الخيل ولعب « التنس » و « الجولف »

أن اليابان تريد أن تستأثر بفريستها — الصين — دون باقى الدول وان تترك هذه الفريسة امامها وجها لوجه ؛ وليس بعيدا أن تكون اليابان قد وضعت خطتها لافتتاح الصين كلها والاستيلاء عليها اقليما فاقليما ، وخوض معركة الحياة والمـــوت مع الغرب والاستعمار الغربى

ولا ريب أن الصين تنكر هذه السياسة ايما انكار ، وسوف تقاومها بكل ما وسعت حسبما صرح به مندوبها لدى عصبة الامم وسفيرها فى لندن ، ولا ريب انها ستعتبر بهذا الخطر الجديد الذى يهدد كيانها واستقلالها فتعمل لتوحيد كلمتها وتنظيم قواها ؛ كذلك لاريب فى ان اليابان رغم قوتها ومنعتها وفيض مواردها ، تقدم على مغامرة كبيرة محفوفة بالصعاب والمخاطر ؛ ومن المشكوك فيه ان تستطيع اليابان ان تتحدى دول الغرب العظمى اذا اجتمعت كلمتها على مقاومة هذه السياسة ، هذا الى ما لابد أن تبذله الصين من الجهود الزاخرة للدفاع عن استقلالها وكيانها ؟

محمد عبد الله عنان

المحامى

وغير ذلك ، والمساء يقضونه فى المسامرة والمنادمة بين الكأس الرحيق والرقص الرشيق .

والمصريون فى وادى حلفا الآن كما هم فى غيره من بلدان السودان : أقلية ينظر اليها أولو الأمر فيه نظرة حذر ، ويكادون يكونون تحت مراقبة دقيقة لأنهم متهمون ببث روح التمرد وماهم كذلك ، وما الحركة التى قامت فى سنة ١٩٢٤ فى السودان إلا ثورة وطنية قام بها الوطنيون قبل غيرهم كما تقوم أية جماعة فى أى بلد بحركة يرجون بها غرضاً معينا ، وما أظن الاتهام الذى يوجهه أولو الأمر فى السودان الى المصريين فى هذا الشأن إلا ستاراً لسياسة موضوعة لقصد معين .

ولكن الروح التى تربط المصرى والسودانى لا تزال قائمة ولن تزول - وهى روح وطنية - ، لأنهما يريان فى النيل أباً مشتركا بينهما ، وهى روح جنسية ، لأن المصرى والسودانى هما مزيج من جنس البحر الأبيض والجنس الحامى ، ثم هى روح لغوية لأنهما يتكلمان العربية ، وهى روح دينية لأنهما إما مسلم وإما قبطى ، وهى أخيراً روح لا يمكن نزعها من جسم أحدهما دون أن يموت الآخر .

والوطنيون هم البربريون الحلفاويون ، لهم رطانة يتكلمون بها فيما بينهم ، إلا أنهم جميعاً يعرفون العربية ، وكثير منهم ملمون باللغة الانجليزية ، ويمتازون من السودانيين بالذكاء والنشاط ، أعرف منهم قاضيا فى إحدى محاكم مصر الأهلية ، وعالما دينيا ، وموظفين أكفاء ، وتجاراً قديرين .

والمولدون وهم مزيج من المصرى أو التركى ومن السودانى ، ثم السودانيون والعبيد .

ويشتغل الوطنيون بالزراعة فوق اشتغالهم بالتجارة ، زراعة مساحات ضئيلة ، بالخضر والنخيل ، والبلح أهم الحاصلات .

أما العبيد فمنهم عمال يحملون طرود البريد وأمتعة المسافرين ، ومنهم مكاريون ينقلون الأثقال على حميرهم ، ومنهم السقاءون يحملون الماء الى الدور بصفائحهم وقربهم .

* * *

تتألف الحكومة فى مديرية حلفا كما هو الحال فى أى مديرية أخرى من مديريات السودان : من المدير ويتوب عن الحاكم العام للسودان فى مديريته ، وهو بريطانى له سلطة شبه مطلقة ، ويعاونه المفتش وهو أيضاً انجليزى يحل محله فى غيابه ، وتنظر دار المديرية فى أحوال الناس القضائية : الأهلية منها والشرعية ، وفى جباية الأموال والمحافظة على الصحة

ويسهر على الامن رجال الشرطة ومقرهم (الضابطية) أو دار الشرطة ، وهم رجال أشداء يلبسون عمامة كاكية أو بيضاء كبيرة وقميصا من الصوف الأصفر وسروالا ونعالا ، يشبهون فى ذلك رجال الحجانة فى مصر ويعاونهم حراس نظاميون فى الليل .

وعلى رأس دار الشرطة المأمور وله نائب ، وكلاهما سودانى ، ولكل قرية عمدتها وشيوخها ، تؤلف منهم محكمة قروية تعدل بين الناس .

وقد حل الوطنيون محل معظم الموظفين المصريين فى كافة أقسام المصالح ، وهم خريجو كلية غوردون بالخرطوم يلتحق بها التلميذ بعد أن يتم العلوم الابتدائية ويقضى بها ثلاثة أعوام يتخصص خلالها فى أحد أقسامها ، أذكر منها قسم المعلمين والترجمة والهندسة ، ويشترط فى طالب الكلية أن يكون سودانيا .

ويفضل أولو الأمر أن يلبس الموظفون الزى الوطنى اثناء العمل ، وهو رداء من نسيج أبيض وعمامة بيضاء ومركوب أحمر ، ويحثونهم على أن يفضلوه على اللباس المصرى .

وتقام حفلات رسمية فى كل عام : أهمها عيد الميلاد السنوى ، والعيد النبوى الكريم ، وعيد ملك الانجليز ، وعيدا الفطر والاضحى ، وتدعو الحكومة كبار الموظفين والتجار والوطنيين الى عيد رأس السنة ، وعيد ميلاد ملك الانجليز فى حفل رسمى ، وتتولى لجنة من الوطنيين دعوة الموظفين البريطانيين وعقيلاتهم الى الاحتفال بالاعياد الأخرى ، وابهجها الاحتفال بالمولد النبوى ، اذ تقام سرادقات مختلفة عديدة على ميدان فسيح يضاء بمصابيح الكهرباء القوية الملونة ، ويحيى ليالى هذا المولد شيوخ يستأجرون من احدى مديريات الوجه القبلى وتدار على المدعوين المرطبات ولفائف الطباق

وبعد أن يستمع المدير ورفاقه قليلا من المديح النبوى ينهضون الى احد السرادقات متنقلين بين أقسامها متفرجين على حلقات الذكر والرقص الوطنى ، وفى كل حلقة توزع الدراهم على بعض الذاكرين والراقصين . والنقود المتداولة فى السودان هى النقود المصرية باقسامها والاسترلينى والشلن والشلنين من النقود الانجليزية .